

## البدوة في طباع أبي الطيب \*

للدكتور عبد الوهاب عزام

وتنزل بالبدويات في القصيدة التي مطلعها :  
من الجآذر في زى الأراب حمر الحلى والمظايا والجلابيب  
يقول فيها :

مأوجه الحضرمستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب  
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البدوة حسن غير مجلوب  
أين المعيز من الآرام فاظرة وغير فاظرة في الحسن والطيب  
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها

مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب  
ولا برزنت من الحمام مائلة أورا كهن سقيلات العرايب  
ومن هوى كل من هجست مموه تركت لون مشيبي غير مخضوب  
ومن هوى الصدق في قولى وحادته

رغبت عن شعر في الرأس مكذوب  
وكانت له في مصر مع بعض رؤساء القبائل مودة . فلما  
أزمع الرحيل مفاضباً كافور استعان بأحد أصدقائه عبد العزيز  
ابن يوسف يبليس وسأله دليلاً فأنفذه إليه ، وقال في هذا :

جزى عرباً أمت يسلبيس ربها  
بعساتها تقرر بذلك عيونها  
كراكر من قيس بن عيلان ساهراً

جفون ظباها للملى وجفونها  
وخص به عبدالعزيز يوسف فا هو الا غيها ومينها  
فتى زان في عيني أقصى قبيله وكم من فتى في حلة لا يزيتها  
وكان سيره من القسواط إلى الكوفة برهاناً منا على ما تمكن

في نفسه من أخلاق البادية وعاداتها ، ودليلاً على خبرته بالسيرة في  
البيادى ، فقد سلك طريقاً أنفاً لا تسلكه القوافل . ذكر في  
قصيدته التي وصف بها سفره اثنين وعشرين موضعاً ليس على  
السبل المطروقة منها إلا اثنان أو ثلاثة ، فاسلك طريق الحاج  
المصرى إلى الحجاز ، ولا طريق دمشق إلى الكوفة ، ولا طريق  
القرات ، بل سار على أحياء البادية ، والياه المورودة والآجنة  
حتى بلغ غايته

وكانت له في مسيره وقائع تمثله بدوياً فحيا خبيراً بقبائل  
البادية وعاداتها ، ضروداً بجزأة الأعراب وإقداهم :  
لنا بلغ مخلا في سيننا ألقى خيلاً صادرة عن الساء ، فأشقت

في خلق أبي الطيب قوة وخشونة تملان به إلى كل قوى  
وكل خشن ، وتعدلان عن كل ضعيف وكل لين ؛ وفي خلقه  
صراحة تجلب إليه كل صريح من القول والفعل والرأى ، وتنفره  
عن كل مموه مزخرف  
وقد لامت هذه الأخلاق التدي ، وزادها التبدى تمكناً  
فيه ، وظهر أثر هذا في فعله وقوله :

وسامر بسيرة أبي الطيب سريعاً منبهاً إلى الحادثات  
والأقوال الدالة على حبه البدوة ، والميمنة عن تمكّن البدوة في  
طبعه ، وأثرها في نفسه :

- ١ -

عاش الشاعر في البادية حقة وهو صبي . روى الخطيب  
البغدادي عن محمد بن يحيى العلوي الكوفي أن أبا الطيب صحب  
الأعراب في البادية سنين ثم رجع إلى الكوفة بدوياً فجاء  
وطاش في الشام بين البدو والحضر . وبعض من وجيه هناك  
من رؤساء البادية مثل سميد بن عبد الله الكلابي ، وشجاع بن  
محمد الطائي

وهو يقول في الشام :

أوأنا في بيوت البدو رحلى وآونة على قند البعير  
أعرّض للرماح الصمّ نحري وأنصب حرّ وجعي للنجير  
وأسرى في ظلام الليل وحلى كأنى منه في قر منير  
ويقول :

ومُدقنين بمُبروت صبيهم طارين من حلال كاسين من درن  
خراب بادية غمرق بطونهم مكن الضباب لهم زاد بلا عن  
يستخبرون فلا أعطيم خبرى وما يطيش لهم سهم من الظنن

- ٢ -

وفي مصر حن إلى البادية ، وفضل البدوة على الحضارة ،

لا يذكر الخير إن ذكرت ولا تتبعك المقتان توكاف  
إذا امرؤ راعى بقدرته أوردته الناية التي خافا  
وأراد أبو الطيب أن يسلك إلى مكان اسمه البياضي فأرسل  
فليتة إلى الأعراب الذين في طريقه فعميت عليه أنباؤهم ، وخشى  
أن يكون له على الطريق رصد ، فعدل إلى دومة الجندل . وواصل  
سيره حتى بلغ الكوفة في شهر ربيع الأول سنة ٣٥٢ بمد ثلاثة  
أشهر من خروجه من القسطنطينية

فهل يستطيع أن يسير هذا المسير ، ويفعل هذه الافعال إلا  
بدوى جرى خبير بالبوادي ؟  
أليس في هذا تصديق قوله :  
الحيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم  
ألا يحق له أن يفخر به . فيقول :

فلا أنحنا ركزنا الرماح بين مكارنا والى  
وبتنا قبيل أسيافنا وعمسها من دماء العدى  
لتلم مصر ومن بالمرأى ق ومن بالعواصم أى الفتى  
وأنى وفيت وأنى أبيت وأنى عتوت على من عتا  
وما كل من قال قولاً وفى ولا كل من سيم خفياً أبى  
ومن يك قلب كقلبي له يشق إلى العز قلب النوى  
ولا بد للقلب من آلة ورأى يصدع صم الصفا  
وفى هذه القصيدة روح البداوة وألفاظها . انظر قوله :

وقلنا لها : أين أرض العرا ق قفالت : ونحن يتربان ها  
واسأل اليوم بدويا عن مكان قريب يقل لك : ها

— ٤ —

وفى قصة هجاء ضبة بن يزيد العيني دليل آخر على تبديه .  
فقد اجتاز بالطف فترل بأصدقائه له . وساروا إلى ضبة وسألوه  
أن يصحبهم فلم يسه إلا المسير معهم ، كما يقول الشاعر فى بعض  
الروايات :

فسير الشاعر مع أصدقائه إلى قتال ضبة وأرهابه دليل على  
ما تمكن فى نفسه من عادات البداوة

— ٥ —

ولما رحل إلى فارس افتقد الوجه العربي واليد العربية

أن يكونوا عيوناً عليه أو عدوا له ، فقاتلهم وغلبهم . ولما قرب  
من النجاب رأى رجلين فطردهما وأخذها فأخبراهما أنها رائدان  
من بنى سليم فخلاهما وسار وهما معه حتى توسط بيوت بنى سليم  
آخر الليل فضرب له ملاعب بن أبى النجم خيمة بيضاء ، وذبح  
له ، وغدا فسار إلى النقع فنزل بيادية من معن وسنبس فذبح  
له عُصيف المعنى غنماً وأكرمه ، وغدا من عنده وبين يديه لسان  
من جذام يدلانه

ولما بلغ حمصى فى شمال الحجاز وجد بنى فزارة شاتين  
بها ، فنزل بقوم مزى عدى فزارة فيهم أولاد لاحق بن مجائب ،  
وكان بينه وبين أمير فزارة حسان بن حكمة مودة ، وأراد ألا يعلم  
ما بينه وبينهم من ود فنزل بجار لهم من طي

واستطاب أبو الطيب حمصى فأقام بها شهراً ، وما أحب  
المقام بالبادية إليه ، ثم استراب بيمض عبيده ، وظن أنهم  
يسرقون أمتته ، ويريدون سرقة سيف ثمين كان معه ، أغرام على  
هذا وردان بن ربيعة ، فأرسل إلى فتى من بنى مازن اسمه فليتة  
ابن محمد ، وكان قد عرفه من قبل ، فلما جاءه المازنى تقدم  
شاعرنا فشد أحماله وعبيده نيام ثم أيقظهم وطرحهم على الأبل  
وسار والقوم لا يشعرون

وأخذ بعض العبيد السيف فدفعه وفرسه إلى عبد آخر .  
وجاء إلى فرس أبى الطيب ليأخذه فانتبه الشاعر البدوى الشجاع  
فقال البديعاً : أخذ القلام فرسى . عدا إلى فرس سيده  
ليركبه فالتقى هو وأبو الطيب عند الفرس . وسل العبد السيف  
فضرب الرمن ففرب أبو الطيب وجهه قتله : وأرسل رجلاً  
من بنى خفاجة وآخر من بنى مازن ليدركا العبد الذى أخذ السيف  
فلم يقدر عليه

وفى قتل العبد يقول الشاعر :

أعددت للنادين أسى إننا أجدع منهم بهن آنافا  
لا يرحم الله أرؤسا لم أطرن عن هامن أفضافا  
ما ينقم السيف غير قتلهم وأن تكون الثون آلافا  
يا شر لم نجفته بدم وزار للخامعات أجوافا  
قد كنت أغنيت عن سؤالك بي

من زجر الطير لي ومن عافا

حبيب كأن الحسن كان يحبه فأثره أو جار في الحسن قاسمه  
تحول رماح الحظ دون سبائه وتُسي له من كل حي كرائمه  
ويضحى غبار الخيل أدنى ستوره وآخرها نشر الكباء الملازمه

وما شرق بالماء إلا تذكرأ لماء به أهل الحبيب نزول  
يحرمه لمع الأسنه فوقه فليس لظمان إليه وصول

متى ترد قوم من تهوى زيارتها لا يتحفوك بنير البيض والأسل

سواثر ربما سارت هوادجها منيعة بين مطعون ومضروب  
وربما وخذت أيدي المظي بها على نجيع من الفرسان مصبوب  
ومن أثر البداوة استعماله بعض الألفاظ الثرية أحياناً ،

بما أليف من خطاب الأعراب والأخذ عنهم  
وقدرأيته في كثير من تمليقاته على ديوانه محتج بما سمع  
نهم ، وأكتفى هنا بمثال واحد :

قال في قصيدة يمزى بها عضد الدولة :

مثلك يُفنى الحزن من صوبه ويستردّ الدمع من غربه  
أعما لأبقاء على فضله أيعا لتسليم إلى ربه  
ثم أتى بشواهد على وضع العرب أيعا مكان إمّا إلى أن قال :  
وقد ظلع فرس لي فقال فلان الأعرابي وكان من أفصح الناس :  
أيعا نسره مفلوق ، وأيعا موهوص

- ٧ -

ذلكم إجمال الكلام في بداوة أبي الطيب

ولست أقول إن البداوة أنتجت هذه النتائج في أخلاقه  
وشعره ، ولكنني أقول إن بين طباعه وشعره وبين البداوة صلة  
قوية ، غرائز في الشاعر حبيت إليه البداوة وما يتصل بها ،  
وبداوة وكثت هذه الغرائز في نفسه

وبهذه الأخلاق الحرة ، والطباع القوية ، والشجاعة والإقدام  
كان أبو الطيب أقرب إلى الروح العربي من غيره  
ولو أن عمرو بن كلثوم ، وعنترة العبيسي ، والحارث بن حلزة  
عاشوا في القرن الرابع الهجري حيث عاش أبو الطيب لأشبهوه  
في كثير من قوله وفعله

عبر الوهاب عزام

واللسان العربي فقال وهو يصف شعب يوان :

ولكن الفتى العربي فيها عزيب الوجه واليد واللسان  
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسا بترجمان  
وافتقد عرب دمشق الذين كانوا يكرمون مشواه فقال :

ولو كانت دمشق ثنى عناني لبيق الترد صيني الجفان  
يدنجوجي ما رُفعت لضيف به النيران ندى اللسان  
تحل به على قلب شجاع وترحل منه عن قلب جبان  
منازل لم يزل منها خيال يشتمنى الى التوبند جان  
وذكره الترد والنار بدلنا على أنه يريد بادية دمشق لا حضرته  
وقال في أول قصيدة مدح بها عضد الدولة :

أحب حمصاً الى خناصره وكل نفس تحب عيهاها  
حيث التقي خدها وتفتح لبسان وتغرى على عُيهاها  
وصفت فيها مصيف بادية شتوت بالصحصحان مشتاها  
ان أعشبت روضة رعيناها أو ذكرت حلة عزوانها الخ  
ورجع الى النزول بالبدويات في شيراز فقال في القصيدة  
التي مطلعها :

أثلث فأنا أيها الطلل نبي وترزم تحتنا الأبل  
إن الذين أقت وأرحلوا أيامهم لليارم دول  
الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا  
في مقلتي رشاً تديرها بدوية فتنت بها الحلل  
تشكو المطاعم طول هجرتها وسدودها ومن التي تصل  
مأسأت في القعب من لبن تركته وهو المسك والمسل  
وقصة قتله برهان آخر على ما ندعى فقد جنده أبو نصر الجبلي  
وأشار عليه أن يستصحب خفراء فأبى أن يسير في خفارة

- ٦ -

وشعر أبي الطيب تتجل في قوة البداوة وعزتها . ومن آثار  
البداوة فيه تهاونه في خطاب المدوحين . وخروجه عن الآف  
أحياناً . ولذلك أخذ عليه النقاد ما أخذ لا يتسع المقام لذكرها  
ومن آثارها كذلك الكلف بالحرب وآلاتها والخيل ،  
والسفر . وشعره مليء بهذا

ومن ذلك وصفه الحبيبة بالتمعة كقولها :